حرية الإبداع من منظور نقدي

إعداد

الأستاذ الدكتور

مصطفى محمد مطاوع

أستاذ الأدب والنقد بكلية الدراسات الإسلامية والعربية

للبنات بكفر الشيخ

حرية الإبداع من منظور نقدي

تعدُّ قضية حرية الإبداع من أخطر قضايا النقد الأدبي ، إن لم تكن الأخطرَ على الإطلاق ، وقد آثرتُ النظرَ فيها من منظورٍ نقديٍّ خالصٍ ، يخاطب المتدينَ وغيرَه بل يخاطب المسلمَ ، وغيرَ المسلم ، وقد يتبادرُ إلى الذهنِ أن هذه القضية تُعد وليدةَ العصرِ الحديثِ ، لما لها من دويٍّ إعلاميٍّ يقرعُ الآذانَ بين الفينةِ والأخرى، بيد أن المتأمل في تراثنا النقدي، يدركُ أنها تضربُ بجذورِها في أعماقِ النقدِ العربيِّ القديم ، فقد ألمح إليها ابنُ سلام في كتابه " طبقات فحول الشعراء " الذي يعد باكورةَ الإبداعِ النقديِّ في تراثنا العربي ، وفعل الأمرَ نفسَه ابنُ قتيبةَ في " الشعر والشعراء " والجاحظُ في " الحيوان " وتناولها بشيء من التفصيل أبو بكرٍ الصوليُّ في " أخبار أبي تمام " وقدامةُ بن جعفرٍ في " نقد الشعر " والآمديُ في " الموازنة " والقاضي الجرجانيُّ في " الوساطة " ، والثعالبيُّ في " اليتيمة " وغيرُهم .

وجاء العصر الحديث فوجدنا أنفسنا أمامَ موجاتٍ متلاطمةٍ من الآراء والرؤى ، حيث ظهرت المذاهبُ الأدبيةُ المتباينةُ ، وانطلق أنصارُ كلِّ مذهبٍ يروجون لمبادئهِ ، ويرونه المذهبَ الأمثل الذي ينبغي أو يجبُ على الأدباءِ احتذاؤه والدعوةُ إليه ، فظهر على الساحة ما عُرف

بالكلاسيكية ، والرومانسية ، والواقعية ، والجمالية، والرمزية ، والبرناسية ، والوجودية ، وغيرِها ، حتى وصلنا إلى الصورةِ الشائهةِ للحداثةِ الغربيةِ التي هي – في جوهرها – رؤيةٌ فلسفيةٌ تقوم على اعتبار أن العقلَ الإنساني هو مصدرُ كلِّ القيمِ والحقائقِ ، وهو المرجع الوحيد لتفسير كافة المفاهيم ، ويعد الشاعر الفرنسي " شارل بودلير " أولَ من أطلق ذلك المصطلحَ عام ١٨٤٩م ، ودعا مع الحداثيين الغربيين إلى مبادئَ ثلاثةٍ : أولها : الخروجُ على كافة التقاليدِ والقيمِ ، وتحقيقُ القطيعةِ المعرفيةِ مع التراث ، وثانيها : تأليهُ العقلِ ، فلا سلطانَ فوق سلطانِه ، أي إحلالُ فكرةِ العقلِ محلَّ فكرةِ الألوهية ، وثالثها : الحريةُ المطلقةُ ، فكلُّ إنسانٍ حرٌّ في تصرفاته لأن عقلَه إلهُه .

ولم يكن أدبنا الإسلاميُّ والعربيُّ بمنأىً عن تلك التياراتِ والاتجاهاتِ ، فظهرت على الساحة الإبداعيةِ الكثيرُ من الأعمال الصادمةِ، وكلُّنا يذكر رواية " وليمة لأعشاب البحر " للكاتب السوري حيدر حيدر التي صدرت عام ١٩٨٣م متضمنة قدرًا كبيرًا من التجرؤ على الذات الإلهيةِ ، والقرآنِ الكريمِ ، والرسولِ ﷺ ، وتلتها رواية " آيات شيطانية " للكاتب البريطاني ، الهنديّ الأصل سلمان رشدي ، التي صدرت عام ١٩٨٨م منطويةً – هي الأخرى – على استهزاءٍ واضحٍ

بديننا، ورسولِنا ﷺ ، وزوجاتِه ، وصحابتِه رضوان الله عليهم أجمعين ، ثم كانت رواية " مسافة في عقل رجل " لعلاء حامد التي صدرت عام ١٩٩٠م والقائمةُ على التطاول على الذات الإلهيةِ ، والسخريةِ من الأنبياء والرسلِ ، والاستهزاءِ بالجنة والنار ...... إلى آخر مثل هذه الأعمال التي تتسلل إلى الساحة الثقافية في ثياب الخونةِ من أهلها ، كما تتسلل الجراثيمُ إلى الأجساد على أرجُلِ الذباب ، وأجسامِ الفِئَرة ، حتى أصبح راسخًا في أذهان حفنة عفنةٍ من الكتّاب ، أن من أراد تحقيقَ الشهرةِ والثراءِ من أوسع الأبوابِ ، فليقيءْ أعمالاً يتجرأ فيها على الدين والمقدساتِ ، أو يضمّنُها أبعادًا جنسيةً صارخةً ، ثم يتولى كِبْرها بعضُ وسائل الإعلام ، والمرجفون في ساحتنا الثقافيةِ ، ويُحظر نشرُها ، فتتناقلُها الألسنُ والمواقعُ ، والمكتباتُ ، فيُكتب لها الذيوع والشيوعُ ، ويغدو كاتبُها من الأعلام .

وتجاوز هذا الهذيان الكلمة المقروءةَ والمسموعةَ إلى غيرها من وسائل التعبير ، وما فعلته الصحيفة الفرنسية " شارلي إبدو " عنَّا ببعيد ، فقد سخرتْ من النبي الذي جمع العرب من شتات ، وأيقظ العالم من سبات ، وأقام للسماء دينًا في الأرض ، وأسس للأرض دينًا في السماء . وتأتَّى ذلك كلُّه تحت لافتةٍ عريضةٍ هي **" حريـــة الإبــداع "**

ولا نستطيع معالجةَ تلكَ القضيةِ الشائكةِ معالجةً نقديةً سليمةً دون أن نطرح بعض التساؤلات التي لا تبرح أذهان متأمليها والمعنيين بها ، ومنها : هل من حق المبدع أن يقولَ ما يشاء كيفما يشاءُ دون رادعٍ أو وازع ؟ أو أن هناك تعاليمَ دينيةً ، وتقاليدَ اجتماعيةً لا مناص له من الالتزام بها ؟ وهل يستطيع أن يحلّق في سماء الإبداعِ التحليقَ المرجوَّ وهو مقيدٌ بتلك القيود ؟ وهل نستطيع مطالبةَ المبدعِ بأن يجيد قول ما يريد من الناحية الفنية ، دون اكتراثٍ بمضامينِ إبداعه ؟

قبل الإجابة على هذه التساؤلات وغيرِها ، أود الإشارةَ إلى أن الداعين إلى المذاهب الأدبيةِ والنقديةِ التي أشرتُ إليها آنفًا ، لم يستطيعوا التخلص من ميولهم السياسيةِ ، أو اتجاهاتِهم الفلسفيةِ ، عند النظر في قضيةٍ أدبيةٍ ونقديةٍ خالصةٍ ، وهذه من أبجديات التنظير النقدي .

من ثمَّ لم ينشأ بين مذاهبهم – نتيجةَ اختلافِ منطلقاتِها – نوعٌ من التكامل أو التوافق الذي يمكن أن يؤدي في النهاية إلى نظرية نقديةٍ متكاملة ، يرتضيها الأدباءُ على اختلاف أجناسِهم وعصورِهم ، وهذا لا يعني إنكارَ أثرِ السياسةِ أو غيرِها في الأدب ، إنما يعني وجوبَ النأيِّ بالنظرياتِ النقديةِ عن التأثر بالظروف السياسيةِ ، أو الرؤى الأحاديةِ ،

التي سرعان ما تطرأ وتزولُ ، وإلا جاءت هذه النظرياتُ حبيسةَ أسوارِ عصرِها .

وللإجابة على التساؤلات السابقةِ ، ينبغي مناقشة أمرين ، هما جوهر القضية ، **أولهما** : علاقة الأديب بالمجتمع ، وما ينبغي أن تقوم عليه ، **وثانيهما** : حرية الأديب وطبيعتُها .

فيما يتعلق بالأمر الأول ، من المسلَّمِ به أن الأديبَ – قبل أن يكون أديبًا – هو فرد من أفراد المجتمع ، لا مناص له من التأثر بما يجري على مسرحه من هدءات الاستقرارِ ، أو فورانِ الاستنفارِ ، ولا شك في أن حتميةَ العلاقةِ بينه وبين مجتمعِه تؤدي إلى حتميةِ العلاقةِ بين إبداعهِ الفني وهذا المجتمع ، وهذا لا يعني خضوعَه لأعرافِ وتقاليدِ مجتمعِه خضوعًا تامًا ، تذوب فيه ذاتيتُه ، بل يعني تأثرَه بتلك الأعرافِ ، وتكوينَ موقفٍ ذاتيٍّ منها ، وهذا الموقف قد يكون التزامًا موضوعيًا بها ، وقد يكون رفضًا وتمردًا عليها ، وهذا ما يمكن استقراؤه في الشعر العربي على مر العصور .

أي أنه لا يخلو موقف الأديب تجاه وضعِ الجماعةِ من أحد أمرين : إما أن يؤمنَ بسلامةِ الأوضاعِ ، فيناضلَ عنها من تلقاءِ نفسِه ، وبمحضِ اختيارِهِ الحر ، وإما أن ينكرَ هذه النظمَ والأوضاعَ ، فيكونَ حملُه

على الالتزام بها إكراهًا على تزييف موقفِه منها ، وعندئذ لا يخونُ ضميرَه فحسب ، بل يَفقد كذلك جوهرَ الفنّ ، مِن صدق المعاناةِ ، وعمقِ الانفعالِ ، وبالتالي يفقدُ فاعليتَه ..... **هذا عن الأمر الأول** .

أما عن **الأمر الثاني** الذي يتعلق بحرية الأديب ، فإني أسأل المتدينَ وغيرَه ، والمسلمَ وغيرَه ، ودعاةَ التحررِ من كل القيود : ما معنى الحرية ؟ هل تعني التحللَ والتحررَ من كل قيد ، وإطلاقَ العِنانِ للمبدعِ أو الأديبِ في أن يقول ما يشاءُ كيفما يشاء ؟ إذا كانت كذلك ، فما الفارق بينها وبين الفوضى ؟ لا فارق .

إن الحرية – في أسمى معانيها – وفي أرقى المجتمعاتِ تحضرًا تعني التزامَ الإنسانِ بقوانينِ مجتمعِه وتقاليدِ بيئتِه ، وجوهرُ الفرقِ بينها وبين الديكتاتوريةِ أو العبوديةِ ، أن قوانينَ الحريةِ قد اختارها الإنسان والتزم بها من تلقاء نفسه عن طواعية واختيار ، أما قيودُ الديكتاتوريةِ فيفرضها الغيرُ قسرًا على وجه القهرِ والإلزام .

وبالتالي فالحريةُ في صميمها – كما تقول بنت الشاطئ – أمانةٌ صعبةٌ ، ومسئوليةٌ باهظة ، وقيودٌ صارمةٌ ، وأخطر ما تتعرض له الحريةُ – في أي مجالٍ لها – هو الجهلُ بتبعاتِها ومسئوليتِها ، واختلاطُ مفهومِها بشوائبَ ضالةٍ من الفوضى والتحلل .

وتعد حريةُ الكلمة أرقى أنواعِ الحرياتِ ، لأنها أداةُ التعبير الحرِّ ، ومظهرُ الاحترام لكرامة الإنسان في أخصِّ ما يميزه عن الحيوان الأعجم .

وحين تُمارس حريةُ الكلمةِ في المجال العام ، تزدادُ مسئوليتُها خطرًا، بحكم خروجِها من نطاق الحريةِ الفرديةِ لشخص الأديبِ وحده ، إلى النطاق الجماعي للأمَّة ، وأبسطُ تفريطٍ في هذه التبعات ، أو استهانةٍ بتلك القيودِ ، يضعُ الأديبَ والناقدَ ، دون مستوى الحريةِ للكلمةِ المسئولةِ قائدةً وناقدةً .

ووفق هذه الرؤيةِ ، يمكن القولُ بأنه لا تعارض بين الحريةِ والالتزامِ ، مادام هذا الالتزامُ نابعًا من ذاتِ الشاعرِ ، ولم يتجاوزْ ذلك إلى الإلزام الذي هو نقيضُ الحرية ، وأن حريةَ الأديبِ أو المبدعِ ، لا تنفي مسئوليتَه عن سلامةِ مجتمعِه الذي ألقى إليه زمامَ القيادةِ الوجدانية .

كما أقول للذين يتشدقون بالدعوةِ إلى الحريةِ المطلقةِ من كلِّ قيد ، بدعوى أن للأديب خصوصيتَه ، التي توجب منحَه تلك الحرية ، لماذا تلبسون الأديبَ ثوبَ العصمة ؟ أليس بشرًا ، يجوز عليه ما يجوز على البشرية من خطأ ، وزيغ ، وضلال ؟ ألا يمكن أن يخونَ الأمانةَ ، ويبيعَ ضميرَه ، ويسئَ استغلالَ قلمِه ، لمنفعةٍ شخصيةٍ على حساب أمّته ؟ قطعًا يمكن أن يفعل كل ذلك ، أو بعض ذلك .

إنك لا تستطيع أن تمارس رياضةَ الكرةِ على الوجه الصحيح بلا شباكٍ ، وكرةٍ ، وخطوطٍ بيضاءَ ، تحكمُها قواعدُ وقوانين ، فكيف تمارس الإبداع دون مناراتٍ أو قواعدَ أو ضوابط ؟ إن إبداعًا يقوم على فُهُوم دون قواعدَ ، مآلُه إلى انهيار ، ونجْمُه إلى أُفول .

وخلاصة القول أننا مع الالتزام النابعِ من إحساسِ الشاعرِ بحريته في تكوين موقفه ورؤيتِه تجاه أيةِ قضيةٍ ، والذي يمكن تسميتُه بالالتزام الذاتيّ ، ولسنا مع الإلزام الذي يُفرض على الأديب من خارجِ نطاقِ ذاته ، وإن أطلق عليه البعضُ التزامًا ، ومع الحرية التي تجعلُ الأديبَ يتنفسُ من رئتِه هو ، لا من رئات الآخرين ، دون إغفالِ طبيعتهِ البشريةِ ، وحاجتِه إلى قوانينَ وأعرافٍ تنظِّمُ علاقته بغيره ، دون الحريةِ التي تتعدى ذلك إلى الفوضى والانحلالِ ، وتنظر إلى الأديب على أن فوق مستوى البشر .

ومع الأديب الذي يؤمنُ بخطر رسالتِه ، ويدركُ طبيعته البشريةَ ، فيُخضِعُ موقفَه ورؤيتَه للتفكير ، والتثقيف ، والتنقيح ، ومراعاة مشاعر المتلقين ، دون الأديبِ الذي يستجيب لنزواته ، ويعبِّر عن سقطاتِه ، ويرى نفسه فوقَ المحاسبةِ والتقييمِ والتقويم .

ومع القول بعدم الفصل بين الإجادةِ الفنيةِ وسموِّ المضمونِ ، لأنه إذا ما حدث هذا الفصلُ ، وقُدِّم المضمونُ الهابطُ في ثوبٍ فني قشيبٍ ، أو العكس ، جاء العمل الأدبيُّ مشوهًا ، فاقدًا أحدَ جناحيه ، عاجزًا عن التحليق في سماء الإبداع الفني .

وأخيرًا لا أستطيع أن أُنهي كلمتي هذه ، دون أن نتساءل معًا : هل يجرؤ أحدٌ أن يشكك في المحرقةِ النازيةِ (الهولوكست) تحت رايةِ حريةِ الإبداع ، ويمرَّ عملُه دون عقاب ؟ ولماذا السخريةُ من ديننا دون بقيةِ الأديان ؟ ولم الاسهتزاءُ برسولنا دون بقية الرسل ؟ ولم الإهانة لقرآننا دون بقية الكتبِ المنزَّلة ؟

لا شك في أن ذلك كلَّه يؤكد أن الضمير العالميَّ ضميرٌ منفصلٌ ، أو ضميرٌ مستترٌ واجب الاستتار .

وأختم بمقولةٍ ذهبيةٍ لأديبِ الدعاةِ ، المغفور له بإذن الله ، الشيخ محمد الغزالي ، نصُّها : " إن بين أيدينا كتابًا يخرج الناس من الظلمات إلى النور ، فإذا أبينا السير على منهجه ، وأطفأنا بأهوائنا وهجه ، فلن يتركنا القدر نعيش ونبعث كما نشاء " .